الفكر العربي
لا يزال في الأغلال

شيوخ نجد وشيوخ مصر

بمناسبة كتاب « هذي هي الأغلال »

أصدر العالم النجدي الأستاذ عبد الله علي القصيمي كتابه « هذي هي الأغلال » يريد به أن يجرب المسلمون والعرب الحياة بعد أن جربوا الموت طويلاً ، فهبت عليه عواصف الرجعية والجمود من كل مكان ، في مصر وفي المملكة العربية السعودية ، وقادوا يرمونه بكل سهم وجدوه حتى لقد استعانوا بالكذب والوشاية وبما هو أقل منهما تدنياً . وتاريخ النضال بين الرجعية وبين أنصار التقدم والوثوب تاريخ طويل ، زاخر بالبطولة والنبل من جهة ، والنذالة والصغار من جهة أخرى . والإنسانية أجمع مدينة بكل ما لديها من علوم وأفكار وآداب وحضارات وصناعات ، وأديان أيضاً ، لهؤلاء الرجال القلائل الذين يرهبون الجرأة على الباطل الموروث وعلى التقاليد الآخذة بالخناق وعلى الأصنام المرفوعة وعلى كل نقص وضعف قديمين . ولو أننا تصورنا البشرية محرومة من هؤلاء الرجال البسلاء لما كان هنالك بد من أن نتصورها تحيى في مطلع وجودها الفطري البدائي المهين ، عاجزة عن الوقوف على قدميها . وقد تقدم البشر في العصور الأخيرة تقدماً عظيماً من حيث الإستعداد لقبول الجديد من الأشياء ونبذ القديم الذي يثبت فساده أو نقصه أو عجزه عن تحقيق الأهداف العليا للحياة السعيدة الصالحة . وقد عدت أوروبا وأمريكا اليوم نموذجين واضحين في هذا الإستعداد . ومن أجل هذا استطاعتا أن تسيرا في خطوات سريعة دائبة إلى هذا التفوق الذي أوقع العالم كله تحت سيادتهما الظافرة . أما نحن — والشواهد على ذلك كثيرة متلاحقة — فلا نزال حيث كانت البداية الفكرية ، وحيث كان الجمود الصارم العنيد . وقد يكون من شواهد هذه القضية السيئة ، هذه الضجات والصرخات التي تنطلق ملعلعة حول كل ومضة فكرية أو وثبة عقلية يقدم عليها — في ركام من الركود والجمود — أحد الذين رزقوا هذه الموهبة الإنسانية النادرة التي لا تستطيع بيئتنا الخاملة المكسول أن تمنحها الإعانة في الوقوف في

حدودنا المصرية . وإن أقرب الشواهد على هذا الجدل والتكوين الذهني لدينا — معشر العرب أو معشر المصريين — هذان الوجهان المتزلزلان من الأباطيل والأكاذيب ضد هذا الكتاب : كتاب « هذي هي الأغلال » والمهم هنا جداً أن نعرف من هؤلاء المتناصرون المتحالفون لمحاربة هذا الكتاب ، وما هي الأغراض الحقيقية الخفية التي تدفعهم أو تدفع أكثرهم إلى خوض هذه المعركة ، وما الذي يجب أن يصنعه أولو الفكر والرأي والأمر لرد هجومهم وللأخذ على أيديهم — إذا كنا حقاً راغبين في أن نسلك الجادة التي سلكها الناجحون في الحياة الصانعون لها ، وإذا كنا أيضاً نريد أن نتقبل هذه الحياة تقبل الأحرار المشاركين في التبعات ، لا تقبل العبيد الذين تفرض عليهم حياتهم ووجودهم فرضاً ! !

إن الذين نهضوا لحجب هذا الضياء هم فريقان من حيث المكان : فريق هنا في مصر حيث تضج بالأضواء والأفكار والصناعات التي أبدع في إيجادها ذلك العقل الذي تفلت من أغلاله ، وفريق في الحجاز ونجد حيث يدأب ذلك العقل العربي العبقري — الملك عبد العزيز — على إحياء الموات وإيجاد الحياة وجلب الخضرة الى تلك الآكام الجرداء والى رؤوس الحجارة الصماء ... ولكل من الفريقين المتحالفين في هذه الحرب أغراض ودوافع . أما الذين يقاومون الكتاب في الحجاز ونجد فهم فريقان أيضاً : أحدهما أولئك الغرباء الذين جمعتهم المطامع وشهوات الحياة الرخية حول عرش ذلك الجواد العظيم ، ثم ثانيهما أولئك الشيوخ النجديون أو الحجازيون الذين ينكرون أن يكون في الدنيا ما يطلب أو ما يتعلم سوى كتب الفقه والتوحيد . أما أولئك الغرباء الخائفون بعرض طويل العمر من مستشارين وموظفين ، فهم ينكرون هذا الكتاب لأنهم يعلمون أن سلطانهم وعهدهم موقوتان بوجود الليل في بلاد العرب ، وإنهم حينما يطلع النهار هناك يشدون رحالهم لا محالة الى حيث كانوا قبل أن يبدأوا هذه الرحلة السعيدة المؤقتة . وحينئذٍ يفقدون كل ما وجدوا في عالمي الجاه والمال . إذهم يعرفون من جهة أخرى أن هذا الكتاب كتاب « الأغلال » — هو بمثابة النهار الذي يشرق فيهزم الظلام ويلزم الذين يعملون في الظلام بأن يكفوا عن العمل ، وأن الشعب الذي يقرأ مثل هذا الكتاب لا بدّ أن يحب المعرفة ولا بدّ أن يتعلم ، ويومئذٍ يفقد هؤلاء الغرباء السعداء ميزتهم التي بها استغلوا تلك

البلاد وأصبحوا جباة أموالها . ولو أن أهل هذه البلاد قرأوا أمثال هذا السفر وأجابوا نداءه ونهلوا من ينابيع المعارف والعلوم ، لكان هؤلاء الضيوف خارج حدود البلاد من أزمان . . أنهم يعرفون كل هذه الأمور معرفة جيدة وهم من أجل هذه المعرفة يناوئون كل نور قد يتسلل على غفلة منهم إلى موضع سدهم وسلطانهم الطويل العريض ، وهم من أجل هذه الحقيقة أيضاً يحسنون — بلا اخلاص ولا تقوى — لأهل البلاد حالتهم ويوحون إليهم بألا يغيروها الآن في تغييرها — في حسب زعمهم وقولهم — ضياع الدين والخلق والسعادة . وهم إذن على قول من يقول : « الغاية تبرر الوسيلة » غير مخطئين ولا ملومين . ولكننا نحن المخطئون الملومون يوم نجهل أهدافهم ومساعيهم وما يحاولون ويريدون .

* * *

أما الحاربون لهذا الكتاب من شيوخ نجد والحجاز فهم جماعة من الذين سجنت أفكارهم منذ وجدوا في كهوف مظلمة سمتها أفكار مظلمة في عهود مظلمة ، فلا أمل في أن يتقبلوا بسهولة وسرعة هذا الضياء الذي يحمله هذا الكتاب ولا عجب في أن ينوروا وينكروا . ولا ريب أيضاً في أن بعض هؤلاء الشيوخ الذين قاوموا الكتاب إنما حملهم على مقاومتهم هذه علمهم بأن من الأفضل والأبقى لمصالحهم الشخصية الخاصة ولملكهم الوهابي القاهر أن يبقوا وأن يبقى كل شيء كما هو وكما هو . وآخرون من الشيوخ هم من الغرباء أيضاً الذين ذهبوا هناك يطلبون الصيد . فلا مندوحة لهم عن أن يقاوموا ما قد يطير بعض صيدهم من أيديهم المقتصة الرخوة .

وكم حاق جلالة الملك عبد العزيز — هبة الجزيرة العربية بدون نزاع — من هؤلاء الشيوخ حينما أحب أن يدخل الى بلاده ما لا بد منه من حسنات هذه الحضارة وضروريات هذا العصر . . . وقد حرموا استعمال السيارة والتلغراف والتليفون والراديو والساعة في بعض الأوقات ! ! وزعموا أن ذلك كله، لا يعدو أن يكون من أعمال الشياطين . وقد اضطر جلالة الملك منذ سنين تحت ضغطهم المتواصل القوي أن يأمر بوقف استعمال بعض هذه الأمور مدة من الزمان وبتحطيم الأجهزة ، وهم لا يزالون حتى اليوم يحرمون العلوم — غير

علوم الدين — ويمنعون افتتاح المدارس ! ! وحسبك أن تعلم أنه لا توجد حتى اليوم في العاصمة — الرياض — مدرسة حتى أولية ابتدائية . وهذا بسبب مقاومتهم ومنعهم مع حرص جلالة الملك وكثيرين من رجال الدولة الأصلاء أن تنتشر العلوم والمدارس في أرجاء المملكة. ومن أغرب ذلك وأفظعه أنهم إذا وجدوا كتاباً في الحجاز مكتوباً عليه مثلاً : « كتاب الطبيعة » استنكروا ذلك وعدّوه ضرباً من ضروب المروق والاشراك بالله ، ثم يلزمون بأن تزال من الكتب كلمة « الطبيعة » ولا يقبلون في هذا الأمر جدالاً . ونحن نشهد أن الملك عبد العزيز عبقري عظيم حيث استطاع أن يسير بدولته وبشعبه في هذه السبيل بين هؤلاء الخرافيين الجامدين .

وأننا لا نشك لحظة في أن مثل هذا الملك الفذ العبقري لا يمكن أن يحكم أمثال هؤلاء الشيوخ في مثل مؤلف كتاب « الأغلال » أو في كتابه ولا أن يقضي عليه بما يقولون ويزعمون ، بل لا نشك في أن القضية ستكون معكوسة أي أن الأستاذ القصيمي هو الخليق بأن يكون رأيه وكتابه هو الحكم المقضي بما فيه مع مخالفيه .

ان الأمم كلها لتتفاخر بالممتازين من رجالها المفكرين وتعمل على الانتفاع بهم وبمواهبهم العقلية ، وتعد هؤلاء الرجال القلائل هم أعظم فضائلها ومفاخرها . هذا في الأمم التي يكثر مفكروها ، فكيف بأمثال أمتنا التي عقمت عن أن تلد من هؤلاء إلا القليل في الزمن القليل . ومن ثمة فليس لدينا ذرة من الشك في أن جلالة الملك عبد العزيز وسائر الأمراء ورجال الدولة الأصلاء ، سيحاولون أن تنتفع البلاد والشعب بهذا الكتاب وبكاتبه . لا أن يسمعوا فيه أقوال الجاهلين والجامدين والوشاة المغرضين .

أما الذين يقاومون الكتاب من المصريين فهم عبارة عن شيخ شهر بالتبلد والجهل في بلده مصر وفي الحجاز الذي هاجر إليه مرتزقاً ، ثم رجع منه مطروداً يحمل أوزاره وتضائحه الخلقية والعلمية على كتفيه . هذا أحد المقاومين ، ثم جمعية دينية يديرها جماعة من الشبان الذين يعدّون على أصابع اليد . ونحن لا نتهم هؤلاء الشبان في اخلاصهم ولكننا نتهمهم في عقولهم . ويكفي دليلاً على هذا أن يكتبوا في الشيخ محمد عبده والسيد الأفغاني وأن يقولوا أنهما كانا منافقين وفاسقين وداعيتين للاستعمار ، وأنهما كانا يؤلفان الجمعيات

السرية لهدم الاسلام . وأن يكتبوا ويقولوا مثل هذا القول في سعد باشا زغلول وفي كل رجل من رجال الدولة والوطن والدين كالشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت ، وفي أمثال علوبة باشا وأمين الحسيني مفتي فلسطين وفي كل رجل له شأن في وطنيته أو في دينه . وعلى رغم أننا نعتقد أنهم مخلصون ، فإننا نرى أنهم من أحرص خلق الله على الاختلاق وعلى الاتهام بالباطل . وهذا طبعاً ليس من صفات المؤمنين الأتقياء ؛ ولكنها الغرارة الدينية الطائشة والخصومة التي تقع من غير الرجال ... وثمة خصم ثالث لهذا الكتاب وهو رجل يتعاطى صناعة الأدب الصحفي ولكن معارضته لهذا الكتاب والأسلوب الذي اختاره للمقارنة كانا برهانين على براءته من كل صلة بالأدب بكل معانيه ومبانيه . هؤلاء هم خصوم هذا الكتاب في مصر لا غير . أما أحرار الفكر وقادة الرأي فقد أجمعوا بلا استثناء على امتداحه والدعوة إليه وعلى أنه العلاج لأمراض الأرثوذكسية المليون المسلم الذين عجزوا لشدة أمراضهم عن أن يسايروا ركب الحياة .

* * *

والذي يجب أن نشير إليه إشارة قصيرة من هؤلاء الخصوم الثلاثة هو الخصم الأول ، هو رئيس جماعة من الجماعات الدينية الجامدة . والذي نريد أن نقوله هنا أنه في معارضته ومقاومته لم يعمل فعل الأتقياء المتدينين الذين يزعم أنه من أفضلهم أو على رأسهم — بل لم يصنع صنع الرجال المحترمين الذين يعرفون أن لهم مكانة في الهيئة الاجتماعية يجب أن يحافظوا عليها ، وحرمة لا بد أن يرعوها ، وإلا فهل يعرف البشر أن رجلاً محترماً يقيم لنفسه وزناً — أو يظن أن الناس يقيمون له وزناً — يعمد الى كتاب مطبوع يملأ الأيدي والمكتبات يحاول الرد عليه أو هدمه على حسب ادعائه ، فينقل منه عبارات وفقرات ويحرفها تحريفاً فاضحاً حتى يزعم أنها باطلة وأنها يجب الرد عليها وأن كاتبها كافر ؟ فيجيء مثلاً الى هذه العبارة في الكتاب : « وقد جعل الاسلام اسلاماً بادرة لا تتكرر ... » فينقلها هكذا بعد أن عمل فيها تقديماً وتأخيراً ووضع غيره الحرف

المكذوب — : « وقد عمل الاسلام أعمالاً لا تكفى...» (فأبدل بإزاء بلا) وهكذا يكثر من هذا التحريف في الردود التي كتبها ليرد بها على الكتاب. وقد أتى كل صنوف التحريف المعروف عند البشر — زاد ونقص واختزل وغير ... ونحن نحب أن يعرف كل من يقرأ هذا الشيخ أن كل ما ينقله من عبارات الكتاب وألفاظه — دع ما فهمه منه فهماً — محرف بأحد وجوه التحريف المذكورة فلا حجة بما يقول ويكتب إلا لدى من لم يوهبوا الملكات الانسانية التي أحد معانيها التمييز والفهم لما يقرأ ويرى . وكفى أن نقول أنه طرد من الحجاز . ولماذا ؟ ذلك ما نترك القول فيه له هو، فليس من همنا أن نقول في ذلك شيئاً الا اذا حملنا على ذلك .

***

كتاب « هذي هي الأغلال » في اعتقادي أنه هو كتاب العصر في موضوعه وفي القضية التي عالجها، وأنه لا حياة للعرب أو المسلمين ما لم يأخذوا بالأفكار الصارمة التي ضمنها والتوجيهات الحية التي جاء بها ... إنه الكتاب الذي يجب — في رأيي طبعاً — أن يفرض على المعاهد العالية أجمع ليستطيع القيام بعملية تطهير عامة قوية من ركاكات الماضي وسخافات التقاليد وبقايا الضعف الذهني والاعتقادي والديني — تلك البقايا التي تلازم من يتخرجون في الجامعات وفي المعاهد العالية فيأتون — على رغم تعليمهم العالي عاجزين عن النجاح في الحياة وعن الابداع فيها — بل عاجزين عن الانتفاع بكل ما تلقوا من علوم ومعارف عالية . والسبب الأكبر في هذا العجز هو ما ذكرنا من سلطان الماضي السخيف العتيد الذي جاء هذا الكتاب ليجعله أحاديث ومزقاً

***

وكتاب كهذا لا شك عندنا في أنه لن يلقى لدى سيد الجزيرة وأمرائها ورجالها إلا التأييد والنصر الأكيد .

مسلم مصر